إضاءة

يتنوّع حضور المقهى في عالم الكتابة والأدب. فهو موضوعٌ أدبيّ تمرّس في الكتابة عنه كبارُ المؤلّفين. كما انه فضاءٌ يلجأ إليه الكتّاب لينصهروا بين مختلف شرائح المجتمع التي ترتاده، حتى إن بعض المقاهي باتت تقترن بأسماء كتّاب عرب وغربيّين

نجم الدين خلف الله

المقهى بوصفه فضاءً للكتابة والأفكار

خيالٌ تسنده جَلَبة المكان

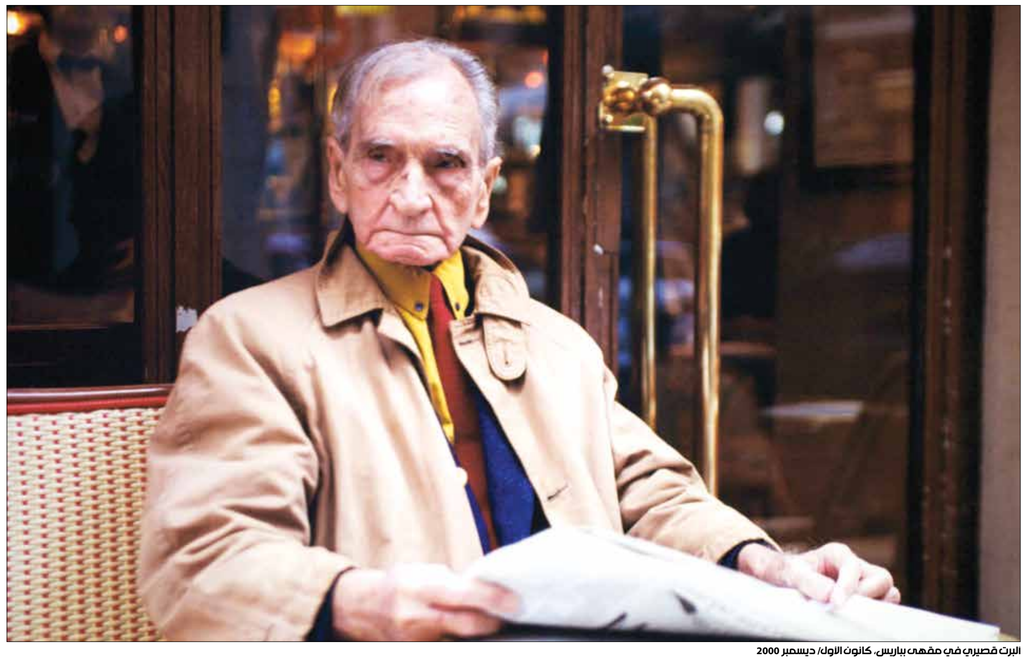

البرت قصيري في مقهى بباريس، كانون الأول/ ديسمبر 2000

ثمّة سرٌّ ما يجرّك الكتابة الإبداعيّة وسط المقاهي المنتشرة في البلاد العربيّة والغربيّة، سواء أكانت شعبيّة أم راقية. فلطالما اقترنتْ، في تاريخ الأدب العالمي الحديث، أسماءُ بعض كبار الكتّاب بمقاهٍ تعوّدوا على ارتيادها والِفوا الكتابة في ضجيجها أو هدوئها، مثل مقهى «لي دو ماغو» (Les deux magots)، في حي سان جيرمان الباريسي، حيث كان يجلس جان. بول سارتر وسيمون دو بوفوار، ومن قبلهما همنغواي ومالارميه. كما كان الكاتب المصري البرت قصيري يقصد مقاهي هذا الحي لسنوات طويلة.

وفي الفضاء العربي، تحضر مقاهي القاهرة، واشهرُها مقهى «ريش» الذي استلهم من حكاياته نجيب محفوظ الكثيرَ من رواياته، والشّهرة نفسها نالتْها مقاهٍ في شارع الحمراء ببيروت، وفيها صاغ شعراء هذه المدينة العديدَ من قصائدهم. وفي تونس، لمع اسم مقهى «تحت السور» الذي كان يقصده بعض ادباء الهامش، مثل: علي الدوعاجي وابو القاسم الشابّي. فما الذي يوجد في المكان العام ليؤثر في نفسيّة الكتّاب ومخيّلاتهم؟ في المقهى، يجد الأديب نفسه وسط ضوضاء الموسيقى الصادحة من مكبّرات الصوت، التي تمتزج بلهجات المرتادين وصياحهم ونقاشهم ومزحهم، فضلاً عن مشهد اعمدة الدخان الصاعدة من النراجيل، تخترقها حركاتُ النادلين وهم يجوبون ما بين الطاولات، تارةً يُغنّون وتارةً يتذمّرون. ولا شكّ أنّ هذه الأجواء تُلهم المخيّلة وتخلق ضرباً من الانصهار بين الذات العميقة للكاتب، الذي يغدو الصوت الناطقَ بحيويّة المجتمع، الصّادح بهمومه وشواغله، تؤثّرات تلتقطها ريشةُ الكاتب - الجالس فيحوّلها نصّا من داخل المقهى ذاته، بحكم أنّ المقاهي غالبًا ما تضمّ سائرَ شرائح المجتمع وما يسود لديها من خطابات تحضر فيها الامهاتُ وأعمالها. ولنسجّلْ هنا أنّه، ولرُبّما غير بعيد، كانت المرأة العربيّة مُغيّبةً عن هذا الفضاء الشعبي، ولذلك لا يحملُ الأدب النسائي آثارًا واضحة له، ولا يشكّل في كتابته، عمومًا، الإطار المرجعيّ الرئيس.

وأمّا السرّ الثاني، فيكمن في التأثير العكسي الذي يمثّله الحضور الصّاخب في المقهى، والذي يُساعد بعض الأدمغة، بالمعنى الفيزيولوجي - العصبيّ للكلمة، على الدّخول في ضرب من الغياب عن ذلك الوسط، حيث يلجُ الوعيُ حالةً من الانتشاء والغِبْطة التي تحرّك مخازن الأفكار في الذهن وتيسّر عمليّة انسيابها على الورق، وهي حالات معروفة في علم النّفس. وفي الجهة المقابلة، قد يوفّر هدوء بعض المقاهي وموقعها الطبيعيّ، كإشرافها على البحر أو وقوعها على سفوح الجبال والرّوابي، فرصة نادرة للتأمّل والصياغة، مثما قد لا توفره اجواء البيت ووتائره الروتينيّة.

وثمّة تعليلٌ آخر لحضور المقاهي في الحياة الأدبية، يمكن أن نستمدّه من أعمال المفكّر الألماني يورغن هابرماس وتنظيراته لفكرة «الفضاء العمومي» بما هو إطار اجتماعي تتلخّص فيه هواجس الناس وطموحاتهم، وتتوازن داخله سلطة المجتمع مع سلطة الدّولة. في العالم العربي، كانت المقاهي احد ابرز أشكال الفضاء العمومي، وربّما النّادرة قبل ثورات الربيع العربي، التي يُمارس من خلالها المثقّفون حرّياتهم ويشاكسون - بالمعنى الذي أسّسه ميشال سار - رموزَ السّلطة. فإذا ضيّقت السلطة برقابتها على المتكلّمين، يكون الأدب وقتها فضاءَ حرّية وانعتاقٍ، ولو بين أطياف الخيال وثنايا الكلمات.

وفيما نجحت المقاهي في تغذية الأدب عربيًا، فشلت فضاءات عمومية أخرى في لعب هذا الدور، فمثلًا ادّت الصالونات البرجوازيّة هذه الوظيفة في أوروبا الأنوار، كما يذكر هابرماس، ولكنّ الظّاهرة لم تتشكّل في العالم العربي، باستثناء صالون مَيّ زيادة في القاهرة. وقد يكون هذا الفشل سببًا إضافيًا في إضفاء مزيد من الأهمية الثّقافية على المقهى، وهل يغيب عنا أنه - على عكس الصالونات - يستقطب جميع الشرائح الشعبية والنخبويّة، ولهذا اللقاء شعرًا وخواطرَ وخيالات، حافزًا بلا قاعدة وفضاءً لا تحدّه زاوية، سواءً اتّسم بهدوئه أو صخبه، بضيقه او اتّساعه، بتلوّن الهواء فيه او نقائه، إذ للمقهى حُرمة لا يعرفها إلّا من خَبرَها، ولا يذوق ملذّاته إلّا من دُفع في مضائقه وعانى ضجيجَه ورقابةَ الأذان والعيون المبثوثة فيه.

ومن ناحية أخرى، شكّل المقهى في حدّ ذاته موضوعًا أدبيًا وثيمةً ثريّة، تمرّس في الكتابة عنها كبارُ الكتّاب، فقلّما تخلو رواية حديثة من الإحالة على هذا الفضاء. ومن الأدب التونسيّ، اكتفي برواية: «باب الخضراء» (حيّ شعبي بتونس العاصمة) لعاشور بن فقيرة، الذي خُصّص لمقهى هذا الحيّ ولنادله كوميا أجمل الفصول. فصوّر عاداتٍ مُرتاديه ونقلَ أحاديثهم، حيث يعادُ بناءُ العالَم وتأويل أحداثه على حسب الهوى. مع كلّ رشفة شاي او قهوة، تفسيرٌ للعالم جديد: مُتنفّس العاجزين ومجال المتكلّمين في الحياة والأدب.

إلّا أنّ هذه الظّاهرة لا تتماهى مع «المقاهي الأدبيّة»، التي ظهرت في إسطنبول خلال القرن السادس عشر حول احتساء فناجين القهوة، عقب صدور فتوًى تُجيزها. إذ تتيح هذه المقاهي الأدبية التقاءَ الأدباء والمفكّرين للنقاش والمحاورة، مَمّا يمثل مصدرًا آخر للإلهام ويفسر ارتباط الكتابة بهذا الوسط. ولذلك قال الكاتب الفرنسي أنطوان بلوندان (1891-1922): «لستُ كاتبًا يَشرب، بل أنا شاربٌ، يَكتب بين الفينة والأخرى». ممّا يعني أنّ عمليةَ الاحتساء بطقوسها وما توفّره من المتعة تشكّل هي الأخرى مصدرًا للإلهام وحافزًا على الكتابة، لا سيّما وأنّ المقاهي في الغرب، وبعضها في العالم العربيّ، تقدّم المشروبات الكحولية والخمور ضمنَ قائمة المشروبات المقترحة، مَمّا يشكّل حافزًا عضويًا ومؤثّرًا مباشرًا على الكتابة والتفكير والراحة مما يطلق اللسان ويحلّ عقالَه.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

> يوفّر المقهى توازنًا بين سلطة المجتمع وسلطة الدولة
>
> فضاءٌ تغتني فيه لغةُ الكاتب وهو يصغي إلى شرائح الناس

قُرب مشاغل الناس

لا يمكن ربط الإبداع بشرط الحضور الجسديّ في المقهى، وإلّا لكان نصف الشعب العربيّ مُبدعًا، وهو الذي يُديم الجلوس في المقاهي والحَيْوانيات. كما لا يُشترط وجودُ المقهى لانبثاق الإبداع، وإلّا لَسقط نصفُ الادب العربي، الذي شاع قبل ظهور المقاهي. المقهى من حوافز الانتاج الادبيّ ومن دواعيه ـ كما عند نجيب محفوظ (الصورة) ـ وذلك بفضل ما يتيحه من التحام بمشاغل الناس واصواتهم، ومَن تعدّد الاصوات والدلالات.

معرض

متفرِّقة استعادة لاسمٍ طليعي في عالم الكتاب

الطباعة في نُسختها العثمانية

يستعيد «معرض متفرّقة»، الذي افتُتح قبل أيام في «المكتبة الوطنية» بأنقرة، تجربة إبراهيم متفرّقة، مؤسّس أوّل مطبعة رسمية في السلطنة

إسطنبول ـ أحمد زكريا

يختلف الباحثون الأتراك حول أسباب تأخّر إدخال المطبعة إلى الأراضي العثمانية لما يقرب من ثلاثة قرون، فيرى بعضهم أن الطباعة كانت محرّمة بفتوى، بينما ينفي فريق آخر مسألة التحريم، ويستشهد بوجود المطابع داخل الأراضي العثمانية منذ أواخر القرن الخامس عشر، وهي المطابع التي أسّستها بعض الأقليات، كاليهود والأرمن. ويرى هذا الفريق أن المجتمع العثماني نفسه هو الذي لم يتقبّل فكرة الكتب المطبوعة في أوّل الأمر، لأن علماء المسلمين كانوا يُفضّلون نسخ الكتب على طباعتها، منعاً لتحريف الكتب الدينية.

وبعيداً عن الخلافات حول أسباب تأخّر اعتماد الدولة العثمانية المطبعة رسمياً، يُجمع المؤرّخون على أن أول مطبعة عثمانية طبعت الكتب باللغة التركية العثمانية، هي التي أنشأها إبراهيم مُتفرّقة، الذي وُلد عام 1674 في إحدى المدن التي تقع اليوم ضمن الحدود الرومانية. وهو كاتب ومترجم أرسل أسيراً إلى العاصمة العثمانية، وعاش فيها حتى وفاته عام 1745. استطاع متفرّقة أن يحظى سريعاً بمكانة رفيعة في الإدارة العثمانية، وبحكم إتقانه للعديد من اللغات من بينها التركية، بالإضافة لمعرفته بأمور السياسة، عمل ترجماناً في الديوان العثماني، ثم مستشاراً للشؤون الخارجية للسلطنة. وقد تمكّن من الحصول على فرمان من السلطان أحمد الثالث بتأسيس أوّل مطبعة رسمية للدولة العثمانية.

وفي سياق التأريخ لأوّل مطبعة عثمانية، افتتحت «المكتبة الوطنية» في أنقرة «معرض مُتفرّقة» في السادس من أيلول/ سبتمبر الجاري، ويستمر حتى نهاية كانون الأول/ ديسمبر المقبل. يوثّق المعرض قصّة أوّل مطبعة رسمية في العهد العثماني، التي تمّ افتتاحها عام 1727، وطبعت أول كتبها بعد عامين من تأسيسها. ويحتوي على 17 كتاباً طُبعت في مطبعة متفرّقة، وتتنوّع بين المعاجم وكتب التاريخ والسياسة والجغرافيا. من بينها الكتب التي ألّفها متفرقة أو قام بترجمتها. إلى جانب عرض بعض الصور والوثائق المتعلّقة بإنشاء المطبعة والكادر المؤسّس لها، والكتب التي طُبعت بعد وفاة متفرقة.

وبحسب ما صرّح به أيهان توغلو، رئيس دائرة المكتبات في الرئاسة التركية، لوكالة «الأناضول»، في افتتاح معرض متفرّقة، فإن أول كتاب طُبع فيها هو «معجم فانكلو» وهو ترجمة لمعجم «تاج اللغة وصحاح العربية» المعروف بـ«الصّحاح» لإسماعيل بن حماد الجوهري، وقام بترجمته إلى التركية العثمانية محمد أفندي فانكلو، وطُبع عام 1729. كما أشار توغلو أيضاً إلى أن أكثر من 60 بالمئة من الكتب التي طُبعت في حياة متفرّقة ظلّت على الأرفف ولم يقم أحد بشرائها، وأنه كان يطبع خمسمائة نسخة من كلّ كتاب، باستثناء بعض الكتب التي طبع منها ألف نسخة.

ومن أبرز الكتب التي طبعها متفرقة: «تحفة الكبار في أسفار البحار» لكاتب شلبي (المعروف بحاجي خليفة)، وقد كُتب لرفع الروح المعنوية لرجال البحرية العثمانية بعد العديد من إخفاقات أسطول العثمانيين، ويتناول فيه أمجاد التاريخ البحري العثماني، وطبع عام 1729. وكتاب «تاريخ مصر الجديد: تاريخ مصر القديم» لسهيلي أفندي، الذي تناول فيه تاريخ مصر قبل الفتح الإسلامي وبعده، وطُبع عام 1730. ورسالة «أصول الحكم في نظام الأمم» لحسن كافي الأقحصاري، وطُبعت عام 1732 في 48 صفحة، وتتناول شؤون الحكم والأساليب العسكرية وأمور الحرب، بالإضافة إلى كتاب «روضة الحسين في خلاصة أخبار الخافقين» لمصطفى أفندي نعيمة، وهو أول كتاب يتناول تاريخ العثمانيين حتى ذلك الوقت، وطُبع عام 1734، بالإضافة إلى أول معجم فارسي تركي وهو «لسان العجم» لحسن شعوري، وطُبع عام 1742.

> وضع إبراهيم متفرّقة كتبًا ورسائل، إلى جانب عمله بالطباعة

أهمّ ما يميز معرض متفرقة، إلى جانب هذه الكتب، أنه يحتوي أيضاً على سجلّات مطبعة متفرّقة والمخطوطات التي كتبها بخط يده، مثل مخطوطة «رسالة إسلامية» التي كتبها بعد اعتناقه للإسلام بعدّة سنوات. كما يحتوي المعرض أيضاً على عدد من أبرز الخرائط القديمة لمصر وإيران والبحر الأسود وبحر مرمرة.

من المعرض

شعر

في ساعاتٍ متأخّرة من الليل

رجلٌ يطرق الأبواب

وصلتُ متأخّراً كمَن يصل إلى قاربٍ يسير في اتجاه حادس. تُمطر السماء من شدّة الشراب، والجسر عالٍ؛ وكان قائد القارب يعوم نحو الجسد الطافح

حمزة كوتي

الرجلُ مرتدياً ثياب الحداد، يشاهد التلفزيون. يشاهد شخصًا يقول إنّ الماء قد مات ووريدُ الطائر مدينةٌ جافّة.

أراه في صورةٍ قديمةٍ مع صديقيه: صديقٌ قُتل بانفجار دُمية أثناء الحرب، والآخر لا يزال يصفع تلاميذه أمام مخبزٍ مُغلق.

■■■

عبيدٌ يغرفون من الماء وأنا أفرغ المحار من الرمل. رجال خانتهم نساؤهم يبكون على حافّة النهر ويراقبون الشبكة كيف تلبط. كادت الشمس أن تُشرق عندما شاهدت الميّت على الجسر يرمي صنّارته ويغنّي أغنيةً عن المغول الذين جاؤوا يُلقون التحيّةَ إلى السلاحف المذهلة.

■■■

يقول: زوجتي كانت جميلةً كحَرْث؛ جئتُ من لقائها الآن. على الطريق نظرتُ إليّ ظلالٌ وهي تسير إلى مغسل الموتى. لديّ غربةٌ بحجم الخرائب. يقول ويضحك بصوتٍ عالٍ ويشرب بقية فنجان قهوته.

■■■

منتصف الليل؛ أطفالٌ من زمن دقيانوس يعودون إلى شارعك؛ يبولون ويغنّون ويشاهدون أفلام «أكشن». أخالُ أنّي من التائهين الآتين من القبور الجميلة. منتصف الليل درّاجةٌ نارية تمرُّ؛ أحدهم يصفّر وأنتِ تقولين: اليوم قُتل شخصٌ عصفوراً ومات.

> يغنّي أغنيةً عن مغول جاؤوا يُلقون التحيّةَ إلى السلاحف المذهلة

في حقيبة زوجته يبحث عن أرقام هواتف المجانين الذين أحبّوا جدّته. يبحث عن الرسائل التي أحضرها له الطائر، ويبحث عنّي؛ وعندما مررت ذات يوم من الزّقاق، ناداني: كيف حال الشمس؟ يبحث عمّن أرسل رسالةً إلى زوجة ذي القرنين. يبحث ويعوي: ناقوس، ناقوس. هو ذا عصر دقيانوس.

■■■

في غروب ممطر ألقت امرأةٌ بنفسها من فوق الجسر؛ لقد وصلتُ متأخّرًا كمَن يصل إلى قاربٍ يسير في اتّجاه حادس. تُمطر السماء من شدّة الشراب، والجسرُ عالٍ؛ وكان قائد القارب يعوم في اتّجاه الجسد الطافح والسماء تمطر من شدّة الشراب.

■■■

رجلٌ يطرق الأبواب في ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل. موسيقيٌّ ينام في محار. أشاهد الذين لا يعرفون شيئًا عن المرء كيف يموت. بغيٌ أرى الزمن الماضي في ملامحها. مبنىً أثريٌّ لأناس لم أكن أعرفهم لكني أعرف لغتهم الغريبة.

رجلٌ يطرق الأبواب في ساعاتٍ متأخرةٍ من الليل.

(شاعر من الأهواز)

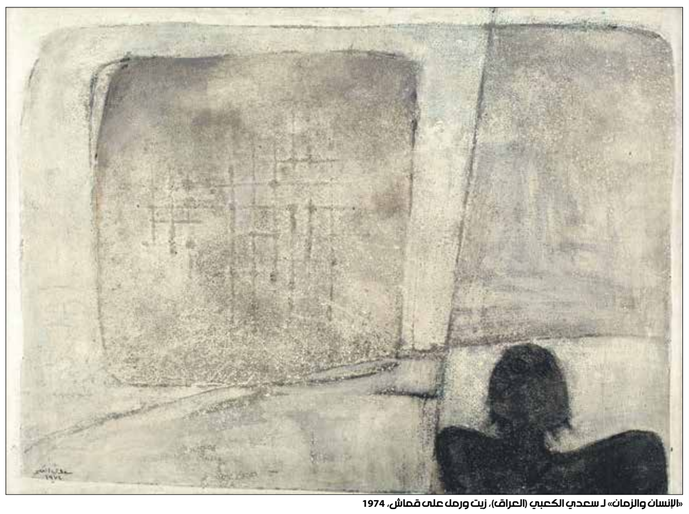

«الانسان والزمان» لـ سعدي الكعبي (العراق). زيت ورمل على قماش، 1974

فعاليات

تُعرض عند الثامنة من مساء اليوم السبت، على خشبة «مسرح الهناجر» في القاهرة، مسرحية **هلاوس** للمخرج **محمد عبد الله**. العرض يستند إلى نصّ «تاجر البندقية» لوليم شكسبير، حيث يقدّمه عبد الله ضمن رؤية معاصرة تعتمد مسرح الجسد والمايم والبانتومايم ومسرح الضوء الاسود بدلا من الحوار.

بين العلم والفن: بدايات التصوير الفوتوغرافي في الشرق الاوسط، عنوان المعرض الذي يُفتتح في العشرين من الشهر الجاري في «مكتبة قطر الوطنية» بالدوحة ويتواصل حتى نهاية كانون الاول/ ديسمبر المقبل. يتضمّن المعرض اعمالا من مقتنيات المكتبة توضّح تأثير الفوتوغراف منذ منتصف القرن التاسع عشر على رسم التصورات عن «الشرق» وما تضمنه من نقاش فكري موازٍ حوله.

ينطّم عند الثانية من بعد ظهر اليوم، في «متحف فرويد» بلندن، سينمار بعنوان **التعاويذ: شخصية الساحرة في السينما**. تطرح الفعالية تساؤلا حول تقويض السينما الحديثة المعاني الثقافية المرتبطة بايقونية الساحرة في الايديولوجية الابوية، و تتحدّث خلالها استاذة الاداء **دافينا كوينليفان** (الصورة).

يُعرض عند السابعة من مساء الثلاثاء المقبل في «معهد ثرباتس» بعمّان فيلم **المنهج** للمخرج الاسباني **مارتيلو بينييرو** ضمن فعاليات **مهرجان الفيلم الاوروبي**. يروي العمل قصة سبعة اشخاص يتقدّمون لوظيفة في احدى الشركات العالمية، وما يتعرّضون له من اجواء منافسة تتحوّل إلى شعور بالاضطهاد.